شعرية المقالات الأخيرة

محمد خير

كثيراً ما خيّل إليّ أن نهايات المقالات الأخيرة لأنسي الحاج، قد حوت شعراً أكثر مما احتوت بدايات قصائده الأولى. وفي حديثه عن الحب والشعر والكلام، في تلك الفقرات الأخيرة من أخبار السبت، كان الشعر يقطر أكثر مما تقطّر في «لن» على سبيل المثال، أو هكذا بدا لي. ربما هو فارق النصف قرن بين الديوان الأول والمقالات الأخيرة، وربما هو أيضاً، راحة الشاعر حين يلعب بلا ضغوط خارج ما ينتظر منه الآخرون. إنه الشاعر الذي - كما ذكر أنسي نفسه ذات مرة- تنفتح له الأبواب، إن أراد فعل أي شيء غير الشعر.

بدا . إذن . مقال السبت كجريدة كاملة، قائمة بذاتها، تبدأ كما تُفتتح الصحف بالسياسة ثم الفكر، وتختتم . يختتم- كما تنتهي الصحف بالنوادر والمنوعات، غير أنها كانت سياسة الشاعر في همومها الوجودية، ومنوعات الموهبة في عذوبتها وإشاراتها وتأملاتها.

وفي بحر العذوبة والشعر المقطّر هذا، جاء «البحث عن بشير الجميّل» لا كصدمة ولا كالحجر الشهير في البركة الراكدة، بل كبوح لا يحفل بما يظن الناس -أو ينبغي أن يظنوه - في المثقف الشاعر: «فاشستية» لا أقل. هكذا كتب، وهكذا ألحق اللفظة الصادمة بغيرها» ديكتاتورية» نحتاج - يحتاج لبنان - إليها، جنرالات، وأثر ديغولي، بشير الجميل وهو من هو - لا ديكتاتوراً كما يبغي المقال، بل كذلك من هو في وعي الصراع العربي- اللبناني -الإسرائيلي. وبعد أشهر، في تشرين الثاني (نوفمبر) 2013، يعيد أنسي المعنى نفسه وإن انتقل إلى درجة أكثر اتفاقاً «ألف ديكتاتور كعبد الناصر ولا مرة سفاحون وأغبياء مثل اليوم». قال أنسي ذلك ولم يتراجع، ثم رحل، والبحث عن ديكتاتور والتمسك به قد اتخذ شكلاً وسواسياً في بلد ناصر نفسه. أما لبنان الذي طلب له أنسي ديكتاتوره كبشير سابقاً أو عون لاحقاً، فلم يعد له حتى رئيس جمهورية، فضلاً عن أن يكون ديكتاتوراً، يؤسس دولة ولو «لبعض الوقت» قبل العودة «إلى الفوضى التي نسميها حرية».

كان المختلف المفارق في دعوة أنسي، أنه سمّى دعوته باسمها. ثمة مثقفون كثر ساندوا مستبداً هنا أو ديكتاتوراً هناك. أما أنسي فقد أعلن تأييده للفكرة ذاتها، لديكتاتور غير موجود، وتحت عنوان رئيس ميّت، وحدها الديكتاتورية «تقوّم بلداً سائباً» مثل لبنان، يقول أنسي.

الواقع أن ذلك رأي نادر الإعلان بين المثقفين، لكنه شائع جداً بين «العامة». نظرية «الشعب والكرباج» شائعة جداً في صياغتها الفجة. هل أمضى أنسي عمره الطويل «ليكتشف الحقائق الأولية» على طريقة كامو، أم أنه أفصح عما كان يجابهه في نفسه طول الوقت؟ أم أنه استسلم فحسب؟

على أي حال، لقد استسلم كثر شباباً وفتوّة، وأمام صحوة الماضي في «داعش»، والرصاص المجنون الذي لم تفرغ منه بنادق الأنظمة، تكاد الديكتاتورية السابقة تشعل في النفس حنيناً إلى أيامها الراكدة.

تظلّله غيمة بيضاء

محب جميل

من أين أبدأ الكلام عن أنسي الحاج؟ في خطواتي الأولى إلى أرض الشعر، ظلّ أنسي أحد المصابيح التي أتكأ عليها. شاعرٌ تنحني كلماته لتصافحك كأنها وردة مطليّة بالعسل والمرارة. في كل سطر له، كانت كلماته توخذ كإبرة تنتفخ بالأدرنالين. ظلّ أنسي أميراً مزهوّا بجملته الشعرية. يعرف أن أرض الشعر مقدسة كأن تلك المقاطع الشعرية التي ينسجها مستلّة من شذرة غيم. وجبة شعرية تشبه فواتح الشهيّة، لا تخمة أو رتوش زائدة، فقط حبات كرز على طبق بورسلين أبيض. لقد ظلّ أنسي أحد هؤلاء القليلين الذين يمزجون في كتاباتهم بين جماليات الأدب، ورصانة الصحافة. أميرٌ يخرج من كل حروبه منتصراً، لكنه يفتش في كل مرة عن رأسه المقطوع بين الطرائد. إن أشعار أنسي الحاج أشبه بتوليفة بين نوستالجيا الماضي ومفاجآت المستقبل، نعم إنها ماضي الأيام الآتية، كما أنه الثائر على النمط التقليدي للشعر. لقد قدّ قميص التراث، واضعاً القصيدة الجديدة بين شقّي الرحى. أشعاره تفتش دائماً عن الجوهر والأصول، فالمعادلة بسيطة يُمكنك أن تلخّصها بين كلمتي: الذهب والوردة.

■■■

أشعار أنسي هي الأكثر نقاوةً. لذلك، تجده يبحث دائماً عن الحكمة في فيم الغيوم. وكما يقول: «هل يحب الرجل ليبكي أم ليفرح/ هل يعانق لينتهي أم ليبدأ؟/ ليس للإنسان أن ينفرج بدون غيوم/ولا أن يظفر بدون جزية». نعم يا أنسي، إنها رحلة الشقاء والبحث عن البدء والانتهاء في محراب الحروف. كان أنسي يحاول كتابة الشعر بروح الإنسان الأول، الأقدام التي تلمس صدر الأرض للمرة الأولى، والمطر النقيّ الذي لم يظفر به طين الأرض. كتب لكل شيء، للرسولة بشعرها الطويل حتى الينابيع، للمجوس الذين رجعوا وقالوا، ولحكمة الطير الأسود. كان أنسي يركض في أرض الشعر كأمير بجدائل من ذهب، وفي يده سيف من ضياء. يشق الوادي إلى نصفين، ويهدر نفسه شلالاً على صخرة بيضاء. ظلّ سؤاله دائماً عن صفاء الذهب ورقّة الوردة. ولأنه ربيب المغامرة كان يقول: «من أجمل ما يمكن أن يحدث هو أن ترمي نفسك/ كل يوم من النافذة بتلذذ متجدد واكتشافات فاتنة». نحن الشعراء نحاول دائماً أن نجد تعريفاً للحكمة والألم معاً. أن نبحث في صمت عن نهاياتنا المحتومة، لكن يبدو أن صاحب «لن» كان يعرف السر منذ البداية، فقال: «لن أكون بينكم/لأن ريشة من عصفور في اللطيف الربيع/ستكلل رأسي/وشجر البرد سيحويني/وامرأة باقية بعيداً ستبكيني/وبكاؤها كحياتي جميل». لن نودعك يا أنسي ففي جديلة كل صنوبرة، ما زالت أشعارك تداعب جفونها.

اليد التي تعطف وتؤازر

سيد محمود

قبل أيام، كنت أجلس إلى جوار أدونيس في القاهرة وكان يتحدث عن الثقافة العربية التي لم تنجز الأمور التي كان ينبغي انجازها بعد اكثر من نصف قرن من صدور مجلة «شعر». سألته عن الشاعر الذي كان يتوقع منه الوعد الأكبر لينجز مهمة تجديد القصيدة العربية، واختارك من بين كل مجايليك وعاب عليك ما رآه نكوصاً عن هذا الوعد؟ لم تكن إشارته بغرض المساس بك وبمنجزك، فلم نتحدث بغرض النشر الصحافي. كما أنه تناول اسمك بمحبة يصعب تفاديها. لمعت عيناه بشفقة من يستشعر معنى «الفقد» وفداحة «الغياب». وعن لغتك تحدث بفتنة صانع مجوهرات تورط في وصف «جوهرة « تنقص ورشته وتمنتها أصابعه.

رقص صوته أكثر حين قال برجفة: «تمنيت لو حافظ على الطاقة الجهنمية التي انطلقت في «لن»، لكنه أراد أن يبقى ملائكياً أكثر من اللازم». اعترف لك اليوم بأشياء جديدة، كتلك التي اعترفت لك بها وأنا أودعك قبل عام.

تتذكر أنني كتبت لك حينها عن امرأة بكت الى جواري وأنا اقرأ «ماذا صنعت بالوردة، ماذا فعلت بالذهب»، وعن سيدة أخرى نامت على كتفي يوم تعرفت إليها وكانت تقرأ شعرك كما تفعل «بصارة» تضرب الرمل.

شعرك كان طالعها اليومي، تمد يداها الى دواوينك وتختار قبل قهوتها قصيدة، أي قصيدة لتخطو من سريرها!

تقرأ بعشوائية تامة وتختار شكل أيامها وفق هوى قصيدتك وتقرر ما ينبغي فعله وما هو فائض عن الحاجة. بقيت المرأة التي كانت تبكي حارة وطازجة مثل دمعها ولا تزال تخاف القصيدة وترتجف وظلت الثانية في ظلام أيامها تبحث عن طالع لا يجيء.

أرادت أن تبقى وحيدة كأعمدة إنارة تحرس محطات قطارات همها مؤانسة العابرين. لذلك، أنت ملائكي أكثر من الآخرين.

يصلح شعرك للمواساة. يشبه اليد التي تعطف وتؤازر وتمتد لترسم الطريق. في نصوصك معنى الرفقة بكل ما فيها من حنو وغضب واحتياج للمراجعة.

فيها ملاك لا ينام. يشبه الملاك الذي ساعدنا في عبور الطفولة ولا نذكره إلا مصحوباً بالابتسام كتميمة وهبت لنا سحر الحياة.

هل نفعل ذلك خجلاً من طفولتنا أم هرباً من «ماضي الأيام الآتية»؟ نسيت أن اكتب لك عن دواوينك التي تباع الآن في إحدى مكتبات القاهرة. وضعناها في الواجهة. بياض أغلفتها على النقيض من أيامنا التي أفلتت «خواتيمك» من السواد المهيمن عليها.

اليوم لن يتمكن أحد من المهووسين من اتهام نصوصك بالتعدي على الذات الالهية؟ كيف لم يفهم أن الملاك حاشا أن يفعل ذلك!

جاهدت رشا الأمير كي تضع كتبك بشكل لائق، ولم تفرط أبداً في صيانة نصك من الابتزاز والمساومة. تعرف أنها ثروة «الجديد» تهبها لمن تعرف في أرواحهم الصفاء الذي تستحقه.

ليلة وضعت أغلفة كتبك على صفحتي على فايسبوك، اكتشفت كم كان غيابك فادحاً! أحاول أن أصدق وأنا أراجع سيرتك أنك لم تأت القاهرة ابداً بصفة الشاعر وتساءلت: ما الذي أخافك في مدينتي؟ ما الذي غيب شعرك عنها في زمن توهج نصك.

ساعتها كانت مصر تملك رئيساً يتدخل لتنفرد بلاده بحق انقاذ محمود درويش من الاحتلال ويتأهب لاستقبال نازك الملائكة؟ رئيسنا كان مفتوناً بالأيقونات البشرية، جعل بلادي متحفاً حياً للمقتنيات البشرية. اسأل أيضاً كيف لم يدفعك الفضول الصحافي للتورط في مدينة كان مطبخها السياسي يطهو القرارات اليومية لنصف قادة العالم العربي؟ هل كنت متواضعاً إلى هذا الحد؟ أم كنت تخاف على فرديتك وتحمي نصك من رتابة التكرار؟

نسيت أن أكتب لك إنني مررت ذات يوم قرب مكتبك في «النهار» وكان الباب مواربا، وتوجست من الدخول رغم أنّ لديّ رسالة احملها لك وكانت نسخ تخصك من مجلة الكتابة الأخرى التي اعدت عنك ملفاً ربما كان اول احتفال مصري بالشاعر الذي اراد أن يبقى في «الهامش». خفت من جرح صورتك في ذاكرتي، واردت أن أبقيها صالحة لملاك.